صيرورة سوريا
في التفكير السوري

في هذه الحقبة من التاريخ التي ألقي فيها السلاح ، وأقفرت الميادين من الجنود ، وخلا الفضاء من الطائرات ، وسكت المدفع ، وانتزعت الأمانة الكبرى من عنق الجندي ووضعت في عنق دهاقين السياسة ورجال الفكر ، في هذه الحقبة من التاريخ التي تهتم فيها الأمم بمصائرها ، وتسعى سعياً حثيثاً للفوز بتسوية مشاكلها الداخلية والخارجية ، ما هو المصير الذي نهدف اليه نحن السوريين المنتشرين في جميع بقاع الوطن السوري الطبيعي ، بعدما نالت بعض أجزاء وطننا استقلالاً سياسياً نسبياً وانخرطت في مؤسسة شبه دولية هي « جامعة الدول العربية » وساهمت في عضوية « جامعة الأمم المتحدة » ؟ اننا قطعنا شوطاً بعيداً في مضمار الاستقلال السياسي مهما يُقل في الأسباب التي أدّت الى هذا الاستقلال ، ومهما يُعزَ من الفضل الى الظروف المواتية والملابسات السياسية التي أسفرت عن هذا الاستقلال .

من الطبيعي والمألوف أن يقع اختلاف في الرأي بين أبناء الوطن الواحد حول قضية أو نظرية في شؤون الاقتصاد أو الاجتماع أو أنظمة الحكم أو شكل الحكومة ، أو شؤون العمل وحق العمال وما شابه ذلك . وكثيراً ما يكون الاختلاف محمود العاقبة في مثل هذه الأحوال . لكن السوريين تضاربت آراؤهم حول الوطن وحدوده ومقوّماته الجغرافية والتاريخية والقومية . هناك من يعتقد أن الوطن السوري ، بوصفه الطبيعي ، ليس كلاً قائماً بذاته ضمن الاطار العربي ، وليس له مقوّمات ذاتية البتة ، بل يراه جزءاً لا يتجزأ من أمبراطورية عربية مترامية الأطراف تمتد من الخليج الفارسي شرقاً حتى المحيط الاطلسي غرباً . فسوريا جزء من هذا الوطن الضخم كما أن حيّاً من الاحياء في مدينة جزء من تلك المدينة . وكذلك قل عن مصر والعراق والحجاز ... وغيرها من الأقطار العربية الناطقة بالضاد ويعتبرون

جميع الشعوب التي تقطن هذه الأقطار تؤلف أمة واحدة لها جميع المقوّمات الجغرافية والتاريخية والأثنولوجية بالاضافة الى التراث الديني ، وان تعددت مذاهبه وتنوّعت فرقه ، والتراث اللغوي وان اختلفت لهجاته وتنوّعت لغاته . فجامعة الدول العربية التي تمخضت عنها الحرب الأخيرة ينظر اليها السوريون نظرتين جدّ مختلفتين : فالغلاة منهم يرون فيها نواة صالحة لنشوء الدولة الواحدة ، يشمل سلطانها وقوانينها وأنظمتها جميع الأمم العربية اللسان . وفريق آخر يراها خطوة محمودة ، جليلة الفائدة ، عظيمة الخير نحو اتحاد عربي أقوى وأمنع وأبعد مرمى ، يجعل من أقطار العالم العربي المتضامنة حصناً منيعاً يقيها شرور المطامع الاجنبية الاستعمارية ، دون أن يزين الاستقلال الذي يتمتع به كل قطر من أقطار الاسرة العربية . وأصحاب هذا الرأي لا يعزب عن فكرهم ثقل الرباطات السياسية الدولية وقوتها وجشع الاستعمار الذي يسعى جاهداً ليحول دون تحقيق تلك الأمنية الحلوة .

مما لا مشاحة فيه ، ان العالم العربي في حالته الراهنة ليس أمة واحدة استوفت جميع الشروط والخصائص التي تكوّن الأمم ، بل هي مجموعة أقطار مختلفة ، تفصلها حواجز طبيعية ، يقطنها أقوام اختلفت أجناسهم وميزاتهم وخصائصهم النفسية والفكرية وغير ذلك من الفوارق الاجتماعية والجسدية . بيد أن سكان هذه الأقطار يكادون يجمعون على الايمان بدين واحد ويتكلمون لغة واحدة . فهل يخفق العلم الواحد فوق كل بقعة يرن فيها اللسان وتنتشر فيها العقيدة الدينية ؟ أي هل تتمدّد الدولة بقدر ما تنتشر اللغة والدين ، وأن الأمة تتبع الدولة في حال تقلصها وامتداد نفوذها ؟ اننا بذلك نخرج الأمة عن المصطلح العلمي لنجعلها غير خاضعة لتعريف على الاطلاق . فالعالم العربي اليوم يتكوّن من أمم عربية تقطن شبه الجزيرة العربية ، وأمم مستعربة تقطن خارج شبه الجزيرة العربية . ولا تختلف العلاقة بين الأولى والثانية عن العلاقة القائمة بين الأمة الانجليزية مثلاً والامبراطورية البريطانية . فالأمة الانجليزية هي مجموعة أفراد الشعب الذي يعيش فوق الجزر البريطانية منذ أقدم العصور حتى الآن ، وأنها في اتساعها وتضخمها ونموها لم تشمل وتتمثل جميع الشعوب التي تخضع لها والتي تربطها بالتاج البريطاني علاقات سياسية أو لغوية أو دينية أو استعمارية .

ويقيني، أن الباعث الذي يحدو ببعض السوريين الى نشدان دولة لاتنحصر حدودها عن التخوم التي بلغتها أمواج الفتح العربي عندما انطلق العرب من جزيرتهم في القرن السابع للميلاد لغزو العالم، هو أن أمبراطورية اسلامية عربية عاشت ردحاً من الزمن وبسطت سلطانها على هذه الأقطار جملة، فماذا لم يعد في الامكان في هذا العصر السعي لتكوين دولة أخرى على غرارها؟ ووجه الخطأ في هذه النظرية الاجتماعية التاريخية النفسية هي أنها تستوحي ذلك المبدأ الفاسد الذي يزعم أن التاريخ يعيد نفسه. فالتاريخ لا يعيد نفسه كما يعاد النظر في التجارب العلمية مهما تغيرت الأزمنة والأمكنة. والنقطة الجوهرية التي لم يفطن إليها دعاة الامبراطورية العربية من السوريين هي أن اتحاد هذه الاقطار لم يكن تلقائيًّا، بل كان ثمرة الفتوحات، وأن شعباً باسلاً طموحاً، ليس لطموحه حد، اكتسح هذه الأقطار وأزال عنها ظل شعوب أعرق منه في الملك. فأين لنا تلك القوة العسكرية والعزم الفتي والايمان المتوهج بالحق في الحياة حتى نبلغ ما بلغه العرب القدامى؟

ولنا أن نسأل: « هل من الخير أن تتنازل جميع الأقطار العربية عن استقلالها الذاتي وتندغم جميعها في دولة واحدة؟ وإذا قدِّر لهذه الوحدة السياسية أن تتحقق، فأين عسى يكون مركزها، وكيف يكون شكل الحكم فيها، ومن عساه أن يكون ذلك الملك أو الرئيس أو ما شئت من الألقاب والرتب؟ أرى يومئذٍ أن سكان العالم العربي سينصرفون عن الكفاح ضد الاستعمار ويتنكبون سبل الرقي والحضارة، ليلهوا بسياسة العروش ويجعلوا من أنفسهم بخوراً يحرق في مجمرة الانانية والمآرب.

إنه كفر بحق العرب والعروبة أن نضع نصب أعيننا الممالك التي دوّخوها والعروش التي ثلوها ونبكي ملكاً مضاعاً ونصم الآذان بمفاخرهم وأمجادهم ونأبى أن نلقح أنفسنا بذلك العزم البكر والبطولة الأسطورية التي ذفرت بالمجد والكرامة والخلود. إنه غرور أن نتخيل إمبراطورية شاسعة وبلادنا مجزّأة، مقطعة الأوصال والأجنبي جاثم على صدرنا ولا حول لنا ولا طول. إنه تهرُّب من الواقع وجريمة بحق سوريا أن نستنكف عن النظر إلى القيود التي تكبلنا والحواجز المصطنعة التي قضت بها الشهوات الاستعمارية الطامعة إلى النفوذ والاستغلال والسيطرة. إنه ضعف وانحطاط أن لا نحول عنايتنا إلاّ بالامبراطوريات ونحن

لا نزال متعطرين إلى فرقة تصون استقلالنا وترعى وحدة وطننا وتقضي على النزعات الأقليمية التي ترتكز على أصول مذهبية أو عنصرية أو اقليمية .

وفي الزمن الذي تصرّمت فيه الحبال بين الدين والعلم ، والدين والسياسة في سائر البلاد المتمدنة الراقية ، سواء كان الباعث على ذلك مقتاً للدين واعتباره عقبة كؤوداً يجب إزالتها كي يتسنى للمواكب البشرية أن تسير سيراً مطرداً بدون تلكؤ ، أو حرصاً على الدين وصيانته من أدران الدنيا وإعادته إلى الحقل الذي خلق ليعمل فيه ، في هذا العصر الذي قضى فيه على الدين أن يقصر عمله على شؤون الروح ويتخلى عن شؤون الدنيا من سياسة وغيرها ، نرى جماعة من السوريين العاملين في الحقل السياسي يفكرون تفكيراً لاهوتياً ويرون انه لا بدّ من إقحام الدين ورجاله في شؤون السياسة . ويقولون ويؤمنون بالدولة الدينية ، ليتدرّجوا منها فيما بعد إلى القول والعمل في سبيل الجامعة الدينية . كان هذا الأمر ممكناً ومقبولاً عند ما كانت الفكرة الدينية وحدها مستولية على العقول والقلوب ، وكان الناس يؤمنون أن الملك ظلّ الله فوق الأرض . يرى الأستاذ إسماعيل مظهر ، رئيس تحرير هذه المجلة « إن الإسلام فكرة جامعة . انه دين ودولة ، ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ومهما حاول البعض أن يخرج عن الإسلام هذه الصفة ومهما قيدت نظامات الحكم ، فسيظل الإسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة في فكرة واحدة هي فكرة الدفاع عن المجموع الذي يستظل بظل الإسلام مهما تفرّقت فيه النحل واختلفت المذاهب وتباينت النزعات » .

إننا إذ نقول بوجوب فصل الدين عن الدولة لا نتحدّى الدين في رسالته السماوية التهذيبية ، ولا نعمل بوحي من الإلحاد يثمر أفئدتنا ، بل إننا نحدد تحديداً واضحاً الحقل الذي لا يجب أن يتعداه الدين كي لا يثير مشاكل وانتقادات . ان دمج الدين في الدولة أمر ممكن في كل دولة تدين رعيتها بدين واحد ، وليس ثمت ضرر عظيم ينشأ عندئذ من الجمع بين النظام الديني والدنيوي على صعيد واحد . لكن بلاداً ، كالبلاد السورية مثلاً ، تضم أشتاتاً من الطوائف المتكتلة ، المتدابرة ، المتطاحنة ، المتنازعة ، كيف تستطيع أن تحيا هناء في ظل نظام يستنزل أحكامه من معتقدات طائفة معينة ، ويستضيء بنور عقيدتها المذهبية ؟ وهل تنظر بقية الطوائف بعين الرضى إلى الطائفة التي تتبوأ مركز الحكم وتصبغ كل

أعمالها بصبغتها الدينيــة ؟ إن القول والعمل بالمبدأ الديني يذكيان الخلافات وما أكثرها ، ويوغران الصــدور بالأحقاد وما أحدها ، ويدفعان إلى الدسّ وسوء الظن ، ويحــدوان بالطوائف الأخرى أن تتكتل وتتراص وتعيش عيشة انعزالية لا تشاركها فيها طائفة أخرى ، وتتولد سدود وحواجز بين رغبات الأفراد الطبيعية في الاجتماع والحياة المشتركة في مختلف النواحي . وقد برهنت الأيام ودلت الوقائع على استحالة نشوء مجتمع بشري قوي على دعائم من التفرقة والتباغض والتنابذ بدلاً من التآخي والمحبة والتعاون . وليس ثمت ضمان يكفل ديمومة الاتحاد القومي واطراد نموّه ، يجمع عند ما تتشتت الأهواء ، ويحزب حين تتوزّع الكلمة ، إلاّ نزع الحواجز بين الطوائف في كل بلاد تعاني شر التفرقة التي تنبثق عن الطائفية . لأن هدم الحواجز المصطنعة المزيفة المغايرة لقانون الطبيعة والحيــاة يؤدي إلى نشوء القربى ، واتصال الأرحام ، وانبلاج فجر المحبة والأخوة . ولا تقدر الحياة الطويلة المستقرّة القوية لأية دولة ترسو أصولها على الجامعة الدينية ، لأنها تحمل في طياتهــا عنصر الضعف والفناء . فالجامعة العربية ، مثلاً ، ينضوي تحت لوائها شعوب من أمم شتى ، اختلفت لغاتها ومنازعها وغاياتها ، وتباعدت بلدانها وتنافرت مصالحها وتباينت أذواقها وأفكارها فلا تقر مبدأ واحداً ولا تتفق على السعي نحو غاية واحدة .

إننا استيقظنا من سباتنا الطويل منذ أمد قصير ، فهالنا التقدم الذي أحرزه الغرب المسيحي في جميع ميادين الحياة ووجدنا أنفسنا مكبلين بقيود قيدتنا بها دول مسيحية ، تخيّـل إلينا أن سياسة الغرب قائمة على الرابطة الدينية لا النزعة القومية والمصالح المادية ، وإننا لا نستطيع أن نرفع الحيف وندفع الكيد الاّ إذا تعلقنا بأهداب جامعة دينية . وتيقن أن البلاد العربية إذا عنّ لها أن تلوذ بالجامعة الاسلامية تهوّل بها على دول اوربا أو أميركا المسيحية لتدفع الظلم والسيطرة تشبه مروّض الثيران banderillero الذي يلوّح بخرقته الحمراء كي يهيجها .

***

أحقًّا ، التبست علينا الأمور وتشابهت المسالك وتعذّر علينا أن نصيب شاكلة الصواب؟ عما يثلج الصدور ويبعث الأمل في النفوس ، أن نفقه من السوريين الذين اتصلوا بالغرب ، وتثقفوا

بثقافته وفقهوا سر نهوضه ورقيه وتقدمه بدأوا يفكرون تفكيراً قوياً ويعرضون الحلول القومية لمشاكلنا الخاصة . ومما لا جدال فيه ، أن القول والايمان بالقوميات في العالم العربي في الآونة الحاضرة ، جرأة عظيمة ونهج جديد في مضمار الحياة . وعلة ذلك أن فكرة الوطن patrie لما تتبلور في أذهان السوريين كافة ، وأننا لم نعتد التفكير القومي الصحيح على نحو ما نرى في ديار الغرب . ويرى الكثيرون من أبناء العالم العربي أن نشوء القوميات في بقاعه آيات تفكك وضعف وانقسام كما ينقسم البيت على نفسه . وأن القول والعمل في سبيل أية قومية كانت ، سورية أو مصرية ، أو عراقية .... محاولة أثيمة ترمي إلى إخراج ذلك القطر من حظيرة العروبة والتنكر لها . وفي الحقيقة ، أن القول بالقومية السورية ، مثلاً لا يخرج سوريا من مجموعة البلدان العربية : بل إنه يوضح شخصيتها ويميزها كما تتميز شخصية الأخ بين إخوته وأخواته . وإن العالم العربي يفيد من هذه الأقطار وهي مستقلة استقلالاً ذاتياً وتحيا متعاضدة متحدة ، أكثر مما لو كونت دولة واحدة . وهل الجرم جرمنا إذا استوحينا الواقع ، وفكرنا تفكيراً قومياً ، والطبيعة قد كونت أقطار العالم العربي تكويناً ذاتياً ، وفصلت بين قطر وآخر بحدود طبيعية منيعة ، فالجبال الشاهقة ، والبوادي الشاسعة الواسعة التي ينعدم فيها العمران وأسباب الحياة ؟ ولقد أجاد الشاعر السوري إلياس فرحات إذ استطاع أن يعبر عن حدود سوريا الطبيعية بلغة شعرية :

موطني يمتد من بحر المياه   ممعناً شرقاً الى بحر الرمال
بين طوروس وبين التيه تاه   بجمال فائق حد الجمال

وإن للحدود الجغرافية شأناً عظيماً في حياة الشعوب وخلق شخصية الأمة وتميزها . إذ أن ضمن هذه الحدود يتم تفاعل الأقوام والجماعات : ويسهل اندغامها ، وتتولد بين جزيئاتها الروابط القومية الشديدة التي تنبثق عن الاتصال اليومي ، والاحتكاك الدائم ، والاشتراك العقلي في المصالح المادية المتشابكة . حقاً إن رقي المواصلات قلل من شأن الحدود الجغرافية ، ويسّر سبل الاتصال ، وإن الأسلحة الحديثة سخرت من المعاقل الطبيعية ، لكن كل وسائل العلم والرقي لا تقضي على شخصية المصري ولا تميت خصائص البيئة المصرية التي لن تنفك تمصّر كل من يستوطنها . فهاهم السوريون الذين نزحوا إلى مصر سواء في القرن التاسع عشر أو في مطلع هذا القرن ، ماذا بقي لهم من خصائصهم السورية ؟ وإن كل وسائل

العلم والمدنية لا تمسخ مقومات السوري ومشخصاته ما دام يعيش فوق أرض سوريا . ثم إن مبدأ القومية السورية لا يرسو على وحدة الجنس والمميزات الدينية والسلالية بل على الواقع الاجتماعي في بيئة طبيعية . فهي تتجاوز النظرية السلالية التي ثبت بطلانها وفسادها والتي لا تتجلى إلاّ في الشعوب المنكمشة في أوطانها ، المنطوية على نفسها . وما من شعب ساهم في بناء صرح المدنية استطاع أن يحافظ على نقاء دمه ، وأصبحنا اليوم نرى في امتزاج السلالات الراقية سبباً من أسباب نشوء العبقريات . يقول إميل لدفج في كتابه « الألمان » في معرض حديثه عن شارلمكان : « ليس الجمال أو الذكاء اللذان يبهرانك ، بل العرق ، ولما كان دمه خليطاً من صبغ أسر حاكمة عرّقت فيه ، أصبح من الجلي أن الانسان يكرم عرقه إذا ساهمت في تكوينه سلالات كثيرة » . فالقومية السورية ، كالقومية المصرية ، رسبت خلال قرون عديدة من اتحاد الأقوام واحتكاك الجماعات التي هبطت سوريا واستوطنتها وتركت آثاراً متفاوتة . إن هذه النظرية تقضي على تفاخر العصبيات السلالية التي تنخر جسم الأمة ، وتلد تناكر المذاهب وتنابذها ، وتستهدف خلق الروح التعاونية بين جميع الطبقات والأجناس . إن مبدأ القومية السورية ليس مجرد نظرية أو مذهب ، بل هو أقرب ما يكون إلى الثورة .

والغاية من السيادة القومية هي الحرية التي تستثمرها الأمة في اتباع الأساليب المثلى لمعالجة المشاكل الناشبة ضمن حدود الوطن . لأن هذه المشاكل قد توجد في قطر وينعدم وجودها في قطر آخر ، وتتطلب صوغ قوانين تشريعية تناسب المرحلة من التطوّر التي بلغتها الأمة . وكثيراً ما تتنوّع المشاكل وأنماط الحياة بنسبة قابلية الأمة للتفتح وتنوّع التيارات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تمرّ بالأمة واختلاف البيئة الطبيعية والموقع الجغرافي . فهل يدور بخلد المصري : مثلاً ، إن الأمة السورية تشكو داء التفرقة الذي نشأ عن تعدد المذاهب وتناكرها وأنها تتعطش للاتحاد القومي الذي لا يتأتى إلاّ عندما تصبح الأمة السورية هيئة اجتماعية واحدة ؟ وهل يعلم الحجازي أننا نعاني شرّ رقّين كلاهما وليد الاقطاعية : أحدهما اجتماعي ، عشائري ، ربيب المظالم والمفاسد وآخر اقتصادي ، طبقي ، تحدر إلينا من العهد التركي ، وهو ثمرة طبيعية لحالة سياسية سيئة ولحياة اقتصادية فاسدة ؟!

أن طبقة قليلة العدد ، عظيمة الأهمية ، تملك معظم الأراضي السورية ، بينما توجد طبقة تؤلف الأكثرية الساحقة من أبناء الشعب تعيش على حساب الأخرى في حالة لا توصف من البؤس والجهل والهوان فباتت الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عظيمة بين الطبقة التي أخصها الملك والطبقة المعدمة . ومن مساوىء هذه الحالة ، أنها تكون مصدراً للقلق والشكوى ، وسبباً لرجات اجتماعية فجائية ، وبيئة ممتازة لنمو مبادىء متطرفة كالشيوعية التي تلهب مخيلة الفلاح الساذج والعامل البسيط بما تعد من ألوان النعيم الذي تغذى به الأوهام وتتقاضى ثمنه الحافز الانساني والحرية في النهج في مضمار الحياة . ومن حق الفرد على الدولة التي يعيش في كنفها ويؤلف جزءاً من كيانها ، أن تؤمن له سبل الحياة الهنيئة الشريفة . فهل يسعد المجتمع السوري ما دام النظام الاقطاعي الفاسد قائماً ؟ وهل تقوى أسرة الأمم العربية وتخلو من كل عيب إذا لم تتفرغ كل منها للعناية بترقية أحوالها والاهتمام بأمورها الخاصة في جوّ من التعاطف والتعاون والتشاور والتسمح ؟ .

إن النبع إذا ما انبجس من الأرض غزيراً تعدَّدت مجاريه وتشعبت ، وتعالى هديره ، وتكدَّر ماؤه ، وكثيراً ما يجرف التراب ويقتلع الأشجار والصخور . لكن لا بدّ لقياده من أن يسلس بعد شماسه ، ولمائه أن يصفو بعد كدره ، وأن يقل بعد طغيانه ، ويكثر خيره بعد ضرره . ومن خصائص الأمم التي تستيقظ بعد سبات ، وتنهض بعد كبوة ، وتحس دبيب النهضة في مفاصلها كما تحس الحبلى للجنين يتململ في أحشائها ، أن تتعدَّد فيها المذاهب وتتباين المعتقدات وتحترب الآراء . لكن الأيام والحوادث في غربلتها الدائمة للأفكار والعقائد لا تستبقي منها إلاّ الصالح ولا تدخر غير القادر على البقاء . إن هذه الأمم التي تنهض بعد عثارها تشاهد ركب الحضارة قد تقدَّمها كثيراً ، فتحار في أمرها وتتساءل عن السبل التي تؤدي إلى اللحاق به . وعندئذٍ لا مفر لها من الوقوع في القلق والحيرة والاضطراب فهي لا تبغي التخلف عن الركب ، لكنها لا تنفك تتساءل عن أفضل الطرق المؤدية إلى الموكب الذي يسير في الطليعة . فلا بدع أن نرى القلق وتباين الآراء وتعدُّد المذاهب تستحوذ على عقول السوريين الذين بدأوا يدركون أن لهم في الحياة حقاً وأن للحضارة عليهم ولجاً لا تتلكأ في تقاضيه من الشعوب التي تبغي السؤدد والرفعة . ويجب

أن يكون القلق والاختلاف والتردد من أهم خصائص السوري . ولا شرف في ذلك ولاغضاضة . لأن هذه المساوىء المترسبة في أعماق نفسه هي من ثمره تركة التاريخ . والتاريخ تركة ثقيلة سيئة في نفوس السوريين قلّ أن يضاهيهم فيها شعب من شعوب الأرض . لأن شعباً يطوي قروناً تلو قرون ، خاضعاً للفاتحين ، تتسرب الى نفسه سيئاتهم وحسناتهم ، وجهلهم وعلمهم ، وبرهم وشرهم ، كما تتسرب مياه الامطار والسيول الى طبقات الأرض وما تحمل من الطهارة والقذارة ، لا بد لهذا الشعب الذي أرهقته عوادي الزمان من أن تذهب خصائص رجولته ، وتضمحل مواهبه ، وتقل آثاره في متحف الحضارة ، وتتبدد مآثره في موكب الغزاة الفاتحين ، كما يضيع الجدول في خضم النهر الهادر . سوريا التي تسعى اليوم جاهدة الى الاتحاد ، لم تتم لها الايام أن تكوّن متحداً واحداً ، رغم ان الطبيعة كوّنتها رقعة واضحة المعالم ، بارزة الحدود ، لا تتخللها الحواجز ، وحباها الزمان منذ ثلاثة عشر قرناً لساناً واحداً . فمذ أن تكوّنت الدول ، وما يلازمها من نشوة الفتح والمجد ، وزهوة النصر ، وسوريا لم تنفك تتلقى جحافل الغزاة . فلم يقدر لها أن تحيا مستقلة ، وتترع من عناء الفتح ومتاعبه ، وتستشعر زهو السيادة والسلطان ، وينتشر اسمها في العالم القديم . وتتوارثها ملوك يحكمون باسمها ، إلا في زمن الدولة السلجوقية السورية . ولو قدّر لسوريا الحديثة رجل كمحمد علي ، يلم شعثها ، ويوحّد أجزاءها ، ويذكي في قلوب أبنائها الروح القومية ، ويلقح حياتهم بالكيان السياسي الموحد ، ويجند منهم جيشاً يسير به للحرب والفتح والمغانم قائد كابراهيم لو خلوا سبيله لبلغ مدى لا يصح التنبؤ عنه ، لأن ذلك كفر في ذات العبقرية والعزم الفتي والطموح البكر والجهد . أقول ، لو قدّر لسوريا ما قدّر لمصر ، لما كنا نختلف على كياننا الوطني والقومي . ولو لم تُمنَ الحركة التي قام بها فخر الدين المعني (١٥٨٥ — ١٦٣٥) ضد العثمانيين بالفشل ، لكان شأننا غير ما هو عليه اليوم . لكنه ناء تحت وطأة الخيانة التي كوّنتها الدولة العثمانية من الأمراء السوريين المشتركين الذين كانت تمنّ لهم . وان المصلحة الذاتية ، هذا الداء المتمكن من نفوس بعض السوريين كتمكن العروق في الأجساد ، أعمى هؤلاء المأجورين عن نبل غايته البعيدة ، فتألبوا عليه وأفسدوا خططه ووأدوا طموحه .

ولن أذهب في الظن بعيداً فألقي على كاهل الفتوحات والسياسة تبعة الخلاف في وجهة نظر السوريين إلى قضيتهم القومية ، وضعف الحس الوطني ، وكل الصفات الملازمة للشعوب التي رضخت للاجنبي فتفنن في استغلالها وتسخيرها لقضاء مآربه وانتزع من أعماقها روح اليقين بالكفاءة والرجولة وصرفها عن جوهر الأمور إلى عرضها . بل أن هناك عاملاً آخر لم يفطن إليه أحد قبل اليوم . فالآداب العربية القديمة في قسميها : تلك التي صدرت عن العرب الجاهليين، أو التي تحدرت بعد ظهور الاسلام ، وليست عربية الروح صرفاً ، قد اتخذناها أساساً لثقافتنا التقليدية . وانهذه الآداب خلت خلواً تاماً من فكرة الوطن بمقوماته المعهودة اليوم ، ولا أثر فيها للوطنية patriotisme ، التي تكلأ هذا الوطن . كان العربي قبل الاسلام تائهاً في خضم القبيلة والحي والعنصرية ، فأصبح بعد الاسلام ذرّة لاشأن له أكثر من غيره ، ولا فضل له على غيره مهما كان لونه وجنسه ، في عالم فسيح هو العالم الاسلامي . ويرى الوطن يتمدّد بقدر ما تنتشر العقيدة الدينية ، ويعم اللسان . وما اتخاذ العواصم خارج الحجاز، الوطن الطبيعي للعرب، إلا دليل صادق على أنّ العقل العربي لم يكن قد تفتح بعد على فكرة الوطن والوطنية . وليس التخريج والتعليل والتفسير ، ويخضع التاريخ والحقيقة لنزوات طارئة طائشة، من يظن أن كل البلاد العربية اللسان، التي يتكوّن منها العالم العربي اليوم، كانت قبل الفتح الاسلامي غريبة في التربة التي تدوسها الأقدام ، والدم الذي يجري في العروق ، والكلام الذي تلوكه الألسنة ، والثقافة التي تصقل العقول وتهذّب الطباع والأذواق ، والدين الذي يعتنقه الشعب ويكوّن تراثه الروحي والخلقي ، وان العرب لم تتحرّك جحافلهم ، وتلتئم أمتهم ، وتتململ أسيافهم في أغمادها ، الا لينصروا ويحرّروا من نير الفرس والروم اخواناً لهم في العراق ومصر وسوريا والمغرب . . . فالنزعة التي تؤثر عن العرب وتتسم بها الآداب العربية هي نزعة التفردية individualisme . وهي وان تكن من مميزات الشعوب البدائية غير أنها عند العرب ثمرة البيئة الطبيعية التي يألفونها . فالجزيرة العربية لا يتصل عمرانها اتصالاً مطرداً ، بل تتخللها مفاوز سحيقة ، وفلوات واسعة، لا أثر للعمران البشري فيها على الاطلاق .

ولذا نبتت في رأسه فكرة القبيلة التي تكوّن منتجعه الاجتماعي وتربطه بها روابط

سلالية ، وألف نظره المحلي تلك البقعة المحدودة التي تكوّن واقعه الاجتماعي .

وللموقع الطبيعي سهمٌ وافر في تكوين النفسية السورية التي تتسم بالتفتح والقلق والبعد عن الاستقرار . فامتدادها الطويل من حدود مصر والحجاز جنوباً حتى جبال طوروس شمالاً وموقعها بين البحر المتوسط والصحراء ، ذلك يحمل اليها الروح الخاصة بحوض المتوسط وهذه تحمل اليها روح الحضارة العربية — الاسلامية . هذا الموقع الفريد أخضعها لقوتين تتجاذبانها وصرف ثقلان تتجاذبان « ثوبها العصي » الى ما شاء الله من الزمن . أضف الى ذلك نشوء المعاهد العلمية الاجنبية — الى جانب المعاهد الوطنيــة — من أميركية تبث الثقافة الانجلوسكسونية ، وفرنسية تبذر بذور الثقافة اللاتينية ، فقد لقحت عقول السوريين بلونين مختلفين من ألوان الثقافة . لكن هــذه المعاهد العالية أتاحت لفئة من السوريين أن يطلعوا اطلاعاً مباشراً على جميع مناحي الحياة والنشاط الفكري في الغرب . وهناك فريق آخر تثقف بالآداب العربية فقط ، وعزف عن هذه الثقافات كلها ، وأكبّ على الكتب العربية القديمة يوليها عنايته وتفكيره واهتمامه . ولذا لا يتملكنا العجب إذا رأينا فريقاً من السوريين يمم وجهه شطر المشرق والجنوب ويتعلق بالثقافة الاسلامية العربية لا يرضى عنها بديلاً ، ونرى فريقاً آخر يستوحي الثقافة الغربيــة في شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة والفنون والآداب والعلوم .

* * *

كالطبيب الذي يقبل على معالجة العضو الوجع ولا ظلٌّ للجبن في قلبه ، ولا أثر للتردُّد في يده ، ورائده الخير والسلامة والعافية ، بسائق من هذا الروح كتبنا هذا المقال لنعالج مشاكلنا القومية المتعدّدة ، ويقيننا ان الشعوب القوية في جوهرها ، لا تتلاشى حيويتها بل تظل مكبوتة طيلة عهود الشدة والمحنة والانحطاط . وعندما تواتيها الظروف وتواتيها الأحوال ، تتفتح هذه الحيوية وتتألق ، فلا بدع عندئذٍ أن تنجب الامة أفراداً يتخطون عصرهم ويتقدمون أمتهم قدماً الى مراقي السؤدد والمجد والكرامة .

صافيتا (سوريا)

الياس يعقوب